التمثل العربي لسيميائيات باريس بين الثابت والمتحول

الأستاذ الدكتور: نصرالدين بن غنيسة
جامعة محمد خيضر- بسكرة/ الجزائر

من البواعث الأساسية التي تقف وراء الحركة البنيوية التي انطلقت منها السيميائيات هو الأمل بجعل العلوم الإنسانية علمية، في عصر كان لا يزال ينظر إلى التقدم العلمي كواحد من الأشياء القليلة المرغوبة على نحو لا يطاله الشك. ولقد دام هذا الأمل، وما صاحبه من تفاؤل شديد، حتى ستينيات القرن الماضي، لتعقبه بعد ذلك موجة من الشعور المناهض للعلم، شعور لا يقتصر على استحالة إضفاء الطابع العلمي على العلوم الإنسانية، بل يتعداه إلى عدم الرغبة بأن تكون هذه العلوم علمية. (جاكسون، 2001: 130)

ولهذا كان لزاما على السيميائيات أن تراجع جهازها المفهومي في ضوء هذه التساؤلات الحادة، لا سيما أنها طرحت مشروعها حول المعنى على أنه علم قائم بذاته له موضوعه ومنهجه وتلك مواصفات كل علم ديدنُه البحث عن القواعد العامة التي تتحكم في الظواهر مهما تعددت أشكالها.(أحمد يوسف، 2005: 50) مما حدا بغريماس، عام 1976، إلى الرفض القطعي لكل مفهوم تقليدي للعلم بعدّه معرفة منجزة، تامة، ليقترح تصورا آخر لا يرى في العلم سوى مشروع يتحقق بالتدريج، تحكم سيرورته جدلية الشك واليقين. (Géninasca ، 1993: 28)

وهو ما دعا آن إينو إلى الاعتراف بأن الأطروحات السيميائية ما زالت متأثرة بالأيديولوجيا، علاوة على هشاشتها من الناحية الإبستيمولوجية. وعدت ما أنجزته السيميائيات من بناء نظري مجموعة رؤى ستظل تحت رحمة الزمن، إذ هو الوحيد الكفيل بتعزيزها أو استبعادها باعتبارها أوهاما. ولا تستبعد أن تخضع الرسومات السردية لإعادة صياغة جذرية، وأن يتدخل التاريخ ليقصي المربع السيميائي، بل وتبدي استعدادها للقيام بشيء من التراجع عن الصرامة العلمية، فقط في سبيل تطوير السيميائيات.(إينو، 2004:

(127

إلا أن النزعة العلمية التي رافقت إدخال السيميائيات إلى المجال النقدي العربي والتي جعلتها ثلة ممن ألفوا التعامل مع المناهج التقليدية في تحليل النصوص وهم يستشعرون حالة من الدونية أمام الصرامة العلمية التي امتازت بها مناهج العلوم الطبيعية والدقيقة، جعلتها ديدنها في إثبات مدى صلاحية المنهج السيميائي في معالجة النصوص من وجهة نظر علمية بحتة، فسعوا بذلك إلى الانتقال إلى الضفة الأخرى من الحاجز الذي يفصل العلوم الطبيعية والدقيقة عن العلوم الإنسانية والاجتماعية، فراحوا ينكبون على العمل بتلك الصورة الصارمة الحازمة، ساعين إلى تطبيق ذلك المنهج السيميائي الصارم على الحقل الأدبي.

ولقد ارتبط هذا التصور بمبدأين طالما ألصق بالنزعة العلمية ظلما وجورا ألا وهما الثبات والكونية المفضيان إلى الحقيقة المطلقة، مما حدا ببعض من يبحث في الأصول المعرفية للنظرية السيميائية إلى الاعتقاد بمدى اتسام هذه الأصول بهاتين الخاصيتين، وهو المحفز ذاته الذي فتح الأبواب على مصراعيها أمام من انخرطوا في هذا المضمار ليتناولوا النص بذاته ولذاته بحثا عن حقيقة تتسم بكثير من الإطلاق والعمومية. فكانت غايتهم من التحليل مطاردة المعنى وترويضه المعنى وترويضه ورده إلى العناصر التي أنتجته. وتبعا لذلك عوض أن القيم الجمالية التي يزخر بها النص من إنتاج الذات المتلقية تصبح حصيلة عملية تحليلية تستند إلى العناصر النصية بانزياحاتها وتقابلاتها وتماسكها.(بن كراد، 1994: 7)

وإن كانت هذه الإطلاقية والعمومية والكونية من متلازمات البنيوية التي انطلقت من المختلف نحو الموحد ومن المتغير نحو الثابت، فإن السيميائيات التي ما كان لها أن تفلت من تأثير موجة ما بعد الحداثة وما صاحبها من تفكيكيات دريدا وإبستيمي فوكو، قد انفتحت على البنية، لا بعدّها شكلنة ثابتة ونهائية للحقيقة الدلالية، وإنما باعتبارها سيرورة خطابية لها ظواهرها وأنساقها، لتدرس، تبعا لذلك، العلاقات التي تقيمها هذه الظواهر مع مختلف الأسنن الثقافية والطبيعية.(الصافي، 2011: 42-43) لقد ساهم هذا الاهتمام الجديد في خلق تصور جديد لمفهوم الحقيقة التي تتضمنها البنية. فإذا كانت هذه الأخيرة مرتبطة بكلية متعالية، فإنها، في عرف غريماس، موضوع يتبطنه مستويان؛ مستوى الكائن ومستوى الظاهر. يشرح ذلك غريماس قائلا: "بما أن الحقيقة ليست سوى أثر معنوي، فإننا نرى بأن إنتاجها

متعلق بفعل خاص، إنه فعل إظهار الحقيقة (faire-paraître vrai)؛ أي أن إنتاجها متعلق ببناء خطاب لا يقوم بوظيفة قول الحقيقة ولكن بإظهار نفسه كحقيقة من طرفها". (Greimas، 1983: 110) وعليه، لم يعد بالإمكان الحديث عن الحقيقة الدلالية التي تتبطنها البنية ولكن عن خطاب يقدم نفسه على أنه حقيقة.

وهو ما تطور لاحقا بعنوان جديد يتعلق بسيميائيات التلفظ، إذ لم ينشغل السيميائيون بتلك الإشكالية إلا بعد سنة 1973 ، عندما تراكمت دراسات عديدة تعرِّف بالتلفظ وبالخلفيات المعرفية المتحكمة فيه، وتميزه عن الملفوظ ، وتفحص تجلياته في مختلف أنواع الخطابات المتداولة ، وتجلّي علاقاته وتفاعلاته مع باقي مكونات المسار التوليدي للدلالة أو مع مكونات نصية على نحو الفضاء أو الوصف أو الكلام . (الداهي، 2010)

فكان أن انبرى لرصد هذه التحولات المعرفية مجموعة من النقاد العرب الذين، في سبيل معالجتهم لإشكالية التلفظ من المنظور السيميائي، حصروا همهم في استجلاء وفحص تجليات مختلف معاني التلفظ المتناثرة عبر أهم الدراسات السيميائية الغربية، ثم تحديد موقعه ومنزلته داخل المسار التوليدي الذي يعتبر نموذجا منهجيا ومعياريا مفترضا. إلا أن ذلك للأسف لم يترافق مع موجة من التلقي النظري والتطبيقي لمثل هذا التوجه والذي بقي أسير دراسات متناثرة هنا وهناك، وإن تميزت بالجدة والشمولية، كما هو شأن "التحليل السيميائي للخطاب الروائي"، إلا أنها لم تتمكن من أن تشكل ذلك الزخم الأكاديمي الذي يعطي لمثل هذا التحول صداه في الدراسات السيميائية العربية التي ظلت إلى وقت متأخر رهينة التصور العاملي في طابعه المحايث للظاهرة السردية.

فجاءت مجموعة من الدراسات السيميائية العربية التي اعتمدت، في ممارستها الإجرائية، السيميائية الباريسية، مرتكزة على مفهوم البنية العميقة والبنية المحايثة للسرد، وإن كانت في بعضها نتاج نقاد سيميائيين محترفين أنجزوا دراسات تطبيقية شكلت علامات مفصلية في تاريخ النقد السيميائي العربي، كما هو كتاب"السيميائيات السردية" وكتاب "سيميولوجية الشخصيات السردية" إلا أن الكثير منها، سواء الأكاديمية منها أم غير الأكاديمية، غرق في التطبيق المدرسي الحرفي للتحليل العاملي و ما رافقه من خطاطات ومعادلات توهم قارئها بما يشبه الصرامة العلمية التي تتسم بها العلوم البحتة.(الجرماني،

93 :2012)

الحقيقة أن الخلل الذي يعتري التلقي العربي للتحولات الابستيمولوجية والنظرية وبالتالي المنهجية داخل النظرية السيميائية، والتي أتينا على ذكر مثال عنها فيما سبق، يعود في بعضه إلى إشكالية عميقة وجذرية تتعلق في شبه استقالة النقد السيميائي العربي عن مراجعة النظرية السيميائية ورصد المآزق المعرفية التي انتهت إليها؛ إذ لم يسعفه محاورته للنص عبر آليات سيميائية سردية في تمثل بعض الاختلالات النظرية المنبعثة مما يفترض أنه إرباك النص للنظرية.

فجل ما سعى إليه ثلة ممن تصدوا للنقد السيميائي العربي هو الوفاء الخالص للنظرية بمفاصلها المعرفية وإسقاطاتها الإجرائية، فكان اختياره للنص- موضوع التحليل اختيارا فيه كثير من التحيز الذي من شأنه ألا يحرج النظرية في ثوابتها المعرفية. وإن كان ذلك لا يعدّ مثلبا في حد ذاته؛ إذ لم يفلت منه حتى غريماس وآخرون ممن راحوا يتخيرون النصوص واضحة المفاصل السردية، بيّنة المعالم السيميائية، فيأتي إسقاط النظرية سهلا سلسا يقود إلى آفاق تأويلية متوقعة تعزز المصالحة بين النظرية والإجراء. إلا أن الفرق بين المقاربتين الفرنسية والعربية، هي أن الأولى لم تستسلم للطريق المعبد؛ إذ نلفي غريماس يشدد على ضرورة تجاوز مكامن النقص في النظرية قصد تأمين سلامة القدرة الإجرائية للجهاز المعرفي.(بادي، 2007: 289) بينما ظلت المقاربة الثانية تراوح مكانها من التمثل السلبي للنظرية السيميائية وما ينجر عنه من تحليل للمدونات هو أقرب إلى الاطمئنان على سلامة الجهاز المعرفي من خلال الانسجام الداخلي للتأويل الإجرائي الذي يخص تشييد أنظمة الدلالة تتسم بالثبات والديمومة، منه إلى الكشف عن مكامن الاضطراب الذي، إن وجد، قد يربك انسجام مختلف المفاهيم في الجهاز المعرفي للنظرية السيميائية.

ولنأخذ مثال ذلك مفهوم المربع السيمائي الذي يعدّه بعض التلقي العربي مسلمة لا مجال لوضعها موضع المساءلة والمراجعة، نجده في مظانه الفرنسية محل مناقشة أفضت إلى وسمه بالاضطراب والتناقض. فالتعريف الذي يقدمه صاحبا المعجم المعقلن لنظرية اللغة يحصره في" التمثيل البصري للتمفصل المنطقي لمقولة دلالية ما"، لكن وبعد الوصول إلى نتائج لقّها الغموض واللبس، أدرك الرجلان أن هذا التعريف يشتمل على تناقضين(التمثيل

البصري) و (التمفصل المنطقي)، فنتج عن ذلك احتراز من منطقية هذا المربع أثناء التطبيق وصل مداه عند محرر مدخل المربع السيميائي في الجزء الثاني من المعجم، يقول :" نستطيع، أولا، أن نفرق، في اللغة والواصفة، بين المنفصل والمنقطع، وأن نبحث عن توضيع للمربع كشكل منطقي صرف، لكن هذا الحل غير مرض تماما، فبالإضافة إلى الابتذال البيّن في الشكل، فإن الحل يعتمد على صيغة صورية غير متوافقة مع المسلمة البنيوية الشهيرة التي هي: أن الاختلاف يسبق الهوية(التطابق)". (مفتاح، 2007: 156-157) إن الاضطراب الحاصل في المربع السيميائي، حدودا وتعاريف وعلاقات ونتائج، كان له تأثير كبير في النظرية السيميائية الباريسية بكل مكوناتها، ولعل أهم ما يتضح فيه ذلك الاضطراب هو منطق الجهات. ولعل المقام لا يسمح لنا باستعراضها، ومن أراد الاستزادة عليه أن يرجع إلى الدراسة المتميزة التي أنجزها محمد مفتاح بعنوان "أوليات منطقية رياضية في النظرية السيميائية"، ما يهمنا في هذا المقام هو القول إن السيميائيات الباريسية شعرت بسجن المربع الذي حبست فيه نفسها وأتباعها، بعد أن كانت اعتبرته، مدة ما، ثورة فكرية وثورة منهاجية، فراح هؤلاء الأتباع يردون بصراحة تامة على صاحبي المعجم متهمين إياهما بالتناقض والاضطراب، و ذلك لجمعهما فيه بين الدينامية السيميائية والشيئية المنطقية. الأمر الذي جعل الرجلين يشعران بكل هذه المآزق، فيكتبان أنهما: "ينتظران فحصا جديدا شاملا لحقل الجهات. وفي انتظار تحقيق هذا العمل، فإنه من الأحسن أن تترك الأمور على حالتها".(Greimas, Courtès, 1979 : 285-286)

أمام هذا الحراك المعرفي الذي ميز مفهوم المربع السيميائي في أدبيات مدرسة باريس، نجده يعرض في بعض أدبيات السيميائيات العربية بوصفه مسلمة غير قابلة للمراجعة، كما هو شأن عرض المربع السيميائي (بن مالك، 2000: 14-15) في انتقاله من الحدود المنطقية التي تتسم بالسكون والاستقلالية واللاموقعية إلى كونه بنية ذات عناصر متفاعلة من خلال محاولة توزيع الأحكام الشرعية الإسلامية على أطراف المربع، دون استشعار ضرورة التمييز بين التشييدات المنطقية، باعتبارها صياغات لتركيب محض، وبين المكون الدلالي الذي له قيم موقعية ودينامية وسياقية. وإن مراجعة متفحصة لهذا المكون الدلالي في الموروث الأصولي تبين لنا أن الأحكام الشرعية عبارة عن بنية ذات عناصر

مترابطة، نواتها المباح الذي يتفرع عنه الوجوب والندب من جهة، و الكراهة والمنع من جهة أخرى، هكذا تتفرع عن المباح أربع جهات، مما يجعلها، مع المباح، خمسا. الأمر الذي يضعنا أمام مكون دلالي لبنية خماسية الحدود، تتجاوز المربع في تشييده المنطقي ذي الحدود الأربعة.

وهي الإشكالية ذاتها التي تعترضنا حين تتولى السيميائيات السردية العربية تقديم المربع السيميائي بعدّه تلك البنية البسيطة القابلة للانفجار والتي تمتلك القدرة على جعل المعنى قادرا على التدليل، دون أدنى إشارة إلى ذلك الارتباك المعرفي الذي يجعل تحميل تلك العلاقات الصورية المنطقية قيما مضمونية محددة من خلال الممارسة الاجتماعية أمرا فيه كثير من الخطورة العلمية، (بن كراد، 1994: 34-35) هو ما نبه إليه صاحبا المعجم قائليْن: "يجب أن نميز، فيما نتحدث فيه، بين التشييدات المنطقية، أو الرياضية المستقلة، باعتبارها صياغات لتركيب محض وبين المكون الدلالي، وعليه، فإن كل مطابقة متسرعة بين النماذج السيميائية والمنطقية- الرياضية لن تكون إلا خطيرة في الشروط العلمية الحالية. (A.J.Greimas, J.Courtés, 1979 : 33)

وإذا ما تجاوزت بعض الأدبيات السيميائية العربية هذا الموقف المتصلب حيال المفاهيم التي انبنت عليها مدرسة باريس، وغامرت في مطارحتها للنظرية السيميائية في طبعتها الباريسية، فإنها تقصر بحثها في تحديد أصول النظرية السيميائية واستجلاء خصائصها واستعراض الأسس التي انبنت عليها النظرية، وفي استهداف فهم آليات المتح من هذه الأصول بحسب السياق الابستيمولوجي الذي تندرج فيه السيميائية، لكنها لا تأخذ على عاتقها مناقشة هذه الأصول واستظهار نسبيتها المعرفية من خلال رصد مطباتها المنهجية وثغراتها النظرية، لأن من شأن ذلك أن يدفع بالناقد إلى وضع النظرية الغريماسية على بناء مضطرب الأسس المعرفية، وهو الأمر الذي سوف يقلل من تلك الصرامة العلمية في تناول ظاهرة إنتاج المعنى العزيزة على قلب الناقد. إذن أيسر السبل لعرض الإمكانات النظرية والمنهجية للنظرية السيميائية الغريماسية، بعدّها مقاربة علمية واصفة للخطاب، هو استجلاء المسلمات المعرفية للنظرية، دون النفاذ إلى اختلالاتها، وإنما بوصفها أسسا يقوم عليها نظام معرفي ضارب جذوره في القرن التاسع عشر.

لكن حالة التحول التي اعترت النظرية السيميائية لم تكن لتخفى على النقد السيميائي العربي، بل إن بعضا من هذا التحول تلقفته بعض الأديبات كموضة جاءت لتعزز من الادعاء العلمي الذي لم يكن ليفارق المقاربة العربية كما هو حال رصد التحول من سيميائية العمل إلى سيميائية الأهواء. إلا أن بعض الإسهامات العربية شكلت علامة فارقة في خضم هذا التراكم الكمي، كما هو شأن دراسة "سيميائية السرد، بحث في الوجود السيميائي المتجانس" التي سعت إلى فتح آفاق جديدة لمقاربة الخطاب من خلال عدم التقيد بالمقاربة السيميائية التقليدية، وهذا ما اقتضى منها التركيزَ على الأهواء كأحد تمظهرات المجموعات الدالة الكبرى، الأمر الذي استتبع معاودة النظر في المستويات الثلاثة للنظرية السيميائية، المربع السيميائي، المسار التوليدي و السردية. (الداهي، 2009: 09-10)

إلا أن مثل هذه الاستثناءات لم تكن إلا لتعزز من القاعدة التي تقرّ بأنه لم يكن للنقد السيميائي العربي، على العموم، أن يسهم في تطوير النظر في الخلفيات المعرفية التي تستند إليها النظرية السيميائية لتأمين السياق الابستيمولوجي المؤطر لعملية الانتقال من فرضيات مرحلة المكاسب إلى فرضيات مرحلة المشاريع. ففي ضوء هذا التصور الابستيمولوجي، انطلق مشروع القطار السيميائي الغربي، و الفرنسي على وجه الخصوص، من محطة مساءلة الأسس الابستيمولوجية للنظرية ليصل بعد ذلك إلى فضاء بلورة مشروع التأسيس النظري لبعض المواضيع كالتلفظ والأهواء والتوترية، دون أن يكون للنقد السيميائي العربي حضور في مثل هذه النقلة المعرفية، وكان كل همه الانخراط في هذا التحول من خلال التلقي السلبي للمفاهيم الجديدة المتعلقة بالهوى والتوترية، ترجمة وتعريبا، في محاولة للكشف عن التصورات النظرية التي تبلور ضمنها مشروع تشييد جهازها المفهومي، وكذا فهمِ أساس عملية التحول الابستيمولوجي داخلها. وكذا استيعاب الفرضيات التي انطلقت منها عملية التفكير في البعد الهووي.

بالعودة إلى الحديث عن النقلة المعرفية في سيميائيات مدرسة باريس، فإنه ما كان لها أن تتحقق لو لا وقوف النقد السيميائي الفرنسي على عناصر الثبات والتغير في الروافد التي امتحت منها السيميائية مقوماتها المعرفية، كالبنيوية والشكلانية (بروب ولفي شتراوس)، والفلسفة (أرسطو، وديكارت، وهوسيرل، وميرلو بونتي)، والإرث اللساني المعاصر (سوسير

وتشومسكي)، والنظريات المنطقية والرياضية الحديثة (النظرية الكارثية). فشكلت هذه القراءة لمثل هذه الروافد الصيرورة المعرفية التي عملت على تشييد نظرية عامة لأنظمة الدلالة بعدّها النواة الصلبة للمشروع السيميائي، حيث عملت هذه القراءة على المساءلة الجذرية لفرضيات تلك الروافد، بالاستكشاف الإيجابي والاستكشاف السلبي، بغية إعادة صياغة مفاهيمها بما يضمن استمرار فعالية فرضياتها ومسلماتها، بينما انحسرت بعض أدبيات النقد السيميائي العربي في رصد هذا التفاعل بين النظرية وروافدها المعرفية واستجلاء ما توصلت إليه المراجعة الغربية لأصول هذه الروافد بما يسهم بشكل فعال في بلورة المشروع السيميائي في مراحل التأسيس والتطوير، مع غياب شبه كلي للبصمة العربية في تلك القراءة النقدية. وإذا ما كان هناك نقد لهذه المنابع المعرفية، فهو صادر عن مرجعيات النظرية السيميائية في حد ذاتها، لا عن مراجعة نقدية تكون جزءا من آليات التلقي العربي للسيميائية الغريماسية، كما هو شأن الأطروحة البرويية التي انبرى لنقدها كل من غريماس وشتراوس، وما كان من النقد العربي سوى تعريب هذه الرؤية وإعادة تقديمها للاستهلاك عربيا.

فتنافست بعض الدراسات السيميائية العربية في عرض قراءة كل من شتراوس وغريماس للمشروع البروبي، مركزة على انطلاق شتراوس من ملاحظة الفصل بين المحور النظمي Axe syntagmatique والمحور الاستبدالي Axe paradigmatique. وعلى هذا الأساس، فإن الإجراء التحليلي الذي يستند إلى التجريد كمرحلة أساسية للإمساك بمجموع الحكايات كبنية واحدة، يجب أن تليه مرحلة جديدة تتمثل في العودة من جديد إلى المحسوس، أي إلى التنوع البنيوي الذي تمثله مجموع الحكايات.

بينما راحت أقلام عربية أخرى تبرز بحماسة قراءة غريماس بكونها تريد تعديل المشروع واستيعابه داخل تصور جديد وذلك من خلال إدماج العناصر الوظيفية لمشروع بروب داخل جهاز نظري جديد حوّل من خلاله التتابع الوظيفي إلى قواعد تركيبية تحكم البناء النصي في مستواه النظمي، واقتراح الخطاطة السردية بديلا عن هذا التتابع بعدّها مجموع وحدات استبدالية تلعب داخل الترسيمة النظمية دور المنظم للحكاية كما تشكل هيكلها.

في كلتا الحالتين، اقتصرت مهمة النقد على نقل وتنسيق أطروحات شتراوس، وتعداد مآخذ غريماس على نظرية بروب لم يتجاوز فعل عرض الأطروحات بشكل مرتب

وأمين.

إن مثل هذا الطرح الذي تعددت أوجه تداوله في الأدبيات السيميائية العربية يكشف أن التلقي العربي للنظرية السيميائية في بعض اجتهاداته لم يرْقَ بعدُ إلى إعادة بناء النماذج النظرية التي تقتضي تأسيسا ابستيمولوجيا للأسس النظرية ومساءلة طرق صياغة المفاهيم الرئيسة. (بادي، 2007: 302) حتى يتسنى لمثل هذا الفعل التنظيري أن يقود المشروع النقدي للسيميائية إلى خلخلة الثابت وبعث ديناميكية في الساكن من شأنها أن تبرز تعديلات يصل صداها إلى المستويات العميقة في النظرية السيميائية.

إن السعي في اجتراح مفاهيم جديدة تغني الإرث النظري الباريسي، والذي تجلى في اجتهادات سيميائية عربية عدّة، لم يكن ليتجاوز البحث عن معادل مفهومي للجهاز المعرفي للنظرية السيميائية في تراثنا العربي. كان بإمكان مثل هذه العودة إلى التراث أن تشكل فرصة لنقدنا العربي كي يسهم بشكل أو بآخر في تلمس إفادة السيميائية الباريسية في إغناء تصوراتها النظرية وكيفية النهل من هذا التراث من أجل تشييد نظرية عامة للدلالة تتجاوز الانسدادات النظرية والمعوقات المنهجية.

إلا أن نظرة تاريخية لمثل هذا البحث التراثي عن المعادل السيميائي تحيلنا على مرحلة أولى أين تركزت الجهود النقدية على إثبات أن للسيميائية التي جاء بها الغربيون أصولا عربية تتمثل في أطروحات المناطقة والفلاسفة والبلاغيين، (الفاخوري، 2004: 70) وهي، كما عدّها بعض الباحثين، مرحلةُ التأصيل لهذا الوافد الجديد انطلاقا من البحث عن الجذور المعرفية للمصطلحات والمفاهيم السيميائية بين ثنايا التراث اللغوي والبلاغي والكلامي العربي، بدءا بالدراسات التي تسعى لإثبات أن مصطلح" السِّيمياء" مصطلح عربي، شاع ذكره وتوظيفه بمعنى" العلامة" في القرآن الكريم والتراث العربي، والتي تبطن شعورا بالهزيمة المعرفية وعقدة نقص حضارية تعود جذورها إلى الصدمة الحضارية الناتجة عن أول لقاء شرق- غرب، وكما يقول نصر حامد أبو زيد :"كلما أتتنا صيحة من الغرب، هرعنا إلى تراثنا نلوذ به ونحتمي كأن المعرفة لا تستقر في وعينا إلا إذا كان لها سند من تراثنا حقيقي أو وهمي". (أبو زيد، 1986: 73) وتطورت هذه العقدة، في مرحلة لاحقة، إلى حاجة ملحة لاستخلاص ضديد لهذه السيميائيات الغربية بما يقابلها من سيميائيات عربية في محاولة

لإثبات ندية التراث للفكر الغربي.

وإن كان هناك من حسنات لمثل هذا الطرح، فإنه يعيد مساءلة الهوية المعرفية للسيميائيات من وجهة نظر إبستيمية بعدّها نظرية معرفية لها حقائقها المتلازمة زمنيا، وهو الأمر الذي تنبثق منه مجموعة تساؤلات جوهرية من قبيل:

– هل السيميائيات، ومنها سيميائيات مدرسة باريس علم كوني يفلت من قبضة الزمن، كما يذهب إلى ذلك مجموعة من السيميائيين العرب الذين ما فتئوا يسعون إلى التمثل الحرفي للنظرية السيميائية الباريسية وتطبيقها بشكل آلي على النص العربي بحجة الصرامة العلمية التي تقتضيها الموضوعية، أم أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد تجلٍ من تجليات النظرية المعرفية المحكومة بالسياقات الثقافية المتولدة من رحمها؟

– هل نحن بصدد الحديث عن علم عابر للقارات كوني المسلمات نمطي الآليات، أم عن معرفة رهينة نسبيتها الثقافية؟ وفي هذه الحالة هل يكفي أن نعادل معرفيا مفاهيمها ومقولاتها بما يزخر به تراثنا من تصورات ورؤى، كما هي، على سبيل المثال، محاولة إحالة مصطلح السيميات sémèmes إلى مفهوم المقومات الذاتية التي أشار إليها ابن سينا في الإشارات والتنبيهات. (أحمد يوسف، 2005: 11) أم أن الأمر يتطلب بحثا عن آفاق معرفية جديدة تكون جسرا بين ذلك التراث والوعي المعاصر للنظريات الحداثية ومنها السيميائيات؟

تلك أسئلة لا مفر من مواجهتها ونحن نعيد النظر في تراثنا ونعود ليس فقط لتأمله بل للبحث بين ثناياه عما يمكن أن يشكل قيمة علمية إضافية للسيميائيات. فهذه العودة، كما يراها نصر حامد أبو زيد، ليست نزقا طائشا نابعا من عدم النضج وعدم الاستقلال، ولكنها عودة نابعة من ضرورة وجودية وضرورة معرفية في الوقت ذاته.(أبو زيد، 1986: 73) فليس التراث في وعينا المعاصر قطعة عزيزة من التاريخ فحسب، ولكنه- وهذا هو الأهم- أثر فاعل في مكوناتنا المعرفية المعاصرة. لذلك يتعين علينا أن نتحرك حركة جدلية بين المعرفة السيميائية المعاصرة وبين تمثلنا للمخزون المعرفي للتراث، بحثا عما يمكن أن يشكل فتحا جديدا للنظرية السيميائية في جهازها المفهومي ومرتكزاتها الابستيمية وآلياتها الإجرائية. إن الحاجة الملحة اليوم تتمثل في استقراء هذا التراث بشكل دقيق، واستنباط ما يمكن أن يكون إضافة إلى الجهود السيميائية العالمية. ساعتها وفقط ساعتها يمكننا الحديث عن سيميائيات عربية.

بيبليوغرافيا:

أحمد يوسف، السيميائيات الواصفة، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2005
آراء عابد الجرماني، اتجاهات النقد السيميائي للرواية العربية، منشورات ضفاف، بيروت، 2012
آن إينو، تاريخ السيميائية، ترجمة رشيد بن مالك، منشورات مخبر الترجمة والمصطلح، جامعة الجزائر، 2004
حبيبة الصافي، سيميائيات أيديولوجية، محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، 2011
رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائية السردية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2000
سعيد بن كراد، السيميائيات السردية مدخل نظري، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، 2001
سعيد بن كراد، سيميولوجية الشخصيات السردية، دار مجدلاوي للنشر، عمّان، 2003
سعيد بن كراد، مدخل إلى السيميائيات السردية، تانسيفت،مراكش، 1994
عادل الفاخوري، علم الدلالة عند العرب، دار الطليعة، بيروت، 2004
عبد المجيد نوسي، التحليل السيميائي للخطاب الروائي، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، 2002
ليونارد جاكسون، بؤس البنيوية، الأدب والنظرية البنيوية، ترجمة، ثار ديب، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، 2001

محمد بادي، سيميائيات باريس: المكاسب والمشاريع (مقاربة ابستيمولوجية)، عالم الفكر، المجلد 35، العدد3، 2007

محمد الداهي، سيميائية السرد، بحث في الوجود السيميائي المتجانس، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2009

محمد الداهي، إشكالية التلفظ في النظرية السيميائية، في http://www.mohamed-dahi.net/site (تاريخ التصفح: 2015/08/21)

محمد مفتاح، أولية منطقية رياضية في النظرية السيميائية، عالم الفكر، المجلد 35، العدد3، 2007

نصر حامد أبو زيد، العلامات في التراث، رحلة استكشافية، في مدخل إلى السيميوطيقا، دار الياس العصرية، القاهرة، 1986

Jacques Géninasca, Les acquis et les projets, in Michel Arrivé, Jean Delorme, Jacques Géninasca, Bernard Quémada, Paul Ricoeur, Hommages à A. J. Greimas - Nouveaux Actes Sémiotiques n°25 – 1993, PULIM, Université de Limoges

Algirdas Julien Greimas, Du sens 2, Seuil, Paris, 1983

A.J.Greimas, J.Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Hachette, Paris, 1979